العنف لدى بنـي الإنسان

أ. أحمد معد

باحث دكتوراه - كلية علوم التربيةالرباط جامعة

محمد الخامس السويسي – المملكة المغربية

الملخص

تمر الإنسانية في عصرنا الحالي ظروفا إنسانية عصيبة أكثر من أي وقت مضى، ولعل هذه الظروف تتبدى فيما يعتري إنسان اليوم من تخوفات وتوجسات حول نفسه وحول ما يحيط به، أزمات ومشاكل تزعزع القناعات الاجتماعية والثقافية والسياسية مما تجعل الإنسان أكثر شكا حول مصيره المهدد بالعنف،إنه إحساس يمكن وصفه بالمذهل خصوصا بعدما لعبت وسائل الإعلام المرئية على وجه الخصوص ذات الوظيفة الإيديولوجية على وجه التدقيق دورا بارزا وملفتا للنظر، بل محرضا بالمباشر فيما يتعلق بما سمي بالحركات الاحتجاجية أوالربيع العربي الذي يفترض أن يتحول إلى صيف حار وجاف عنوانه العنف والقتل والتقتيل والتدمير واللاستقرار.

فالعنف يشكل أحد الانشغالات الكبرى الإنسانية في وقتنا الحاضر ويعود ذلك إلى الانتشار المتزايد للعنف في مختلف مجالات الحياة، وعلى جميع الأصعدة في الأسرة والمدرسة والشارع ومكان الشغل...الخ. هذا زيادة على العنف غير المسبوق الذي بات يطبع العلاقات بين الأنظمة الحاكمة وشعوبها فيها يسمى بالربيع العربي.

و حين نتحدث عن إشكالية العنف فإننا نستحضر بالضرورة تقاطعات مفاهيمية وحدودا ابستمولوجية للعنف كظاهرة اجتماعية وكحالة نفسية، كما يمكن النظر إليه كقضية إنسانية أو أخلاقية تمس الإنسان في خصوصياته الإنسية والقيمية، فنجد جملة من التصورات والمقاربات العلمية و الفلسفية . وأحيانا يتعرض حتى لتفسيرات غيبية أو أسطورية؛ لما يستعصى فهم الظاهرة بشكل دقيق أو عندما يفشل الباحث في تعيين أسبابها علميا . وهكذا نضع الإشكالية في الأسئلة التالية :

بأي معنى يمكن اعتبار الإنسان كائنا عنيفا؟ وهل العنف طبيعي فطري يوجد حيثما يوجد الإنسان؟ أم أنه نتاج شروط ثقافية واجتماعية يكتسبها الإنسان؟ وما هو المدخل أو المسار الأفضل لدراسته؟ هل باعتباره قضية إنسانية تستوجب الدراسة الفكرية والتأمل الفلسفي الإنساني ؟ أم باعتباره ظاهرة اجتماعية تحمل في ذاتها شروط بدايتها وشروط تكونها؟ أم باعتباره حالة نفسية سلوكية تتطلب الدراسة النفسية العلمية والتقنية بعيدا عن الخطابات المجردة؟

على هذا المنوال سنتناول مسألة العنف في هذا البحث وفق ثلاثة منطلقات :

المنطلق الأول: مفهوم العنف

المنطلق الثاني: أشكاله ومظاهره

المنطلق الثالث: الاتجاهات المفسرة له

أولا : مفهوم العنف:

تشير كلمة عنف إلى كل سلوك يتضمن معاني الشدة والقسوة والتوبيخ واللوم.. وعلى هذا الأساس فإن العنف قد يكون سلوكا فعليا أو قوليا، أما في اللغة الإنجليزية فإن الأصل اللاتيني للكلمة Violence هوViolentia ومعناها الاستخدام غير المشروع للقوة المادية بأساليب متعددة لإلحاق الأذى بالأشخاص والإضرار بالممتلكات، ويتضمن ذلك معاني العقاب والاغتصاب والتدخل في حريات الآخرين[1]، كما تعني أيضا العمل بالخشونة والعنف والتدنيس والانتهاك والمخالفة، وكل هذه الكلمات ترتبط بكلمة " فيس (Vis) التي تعني القوة والبأس والقدرة والعنف ، أو القوة الفاعلة والمؤثرة[2].

إذا عدنا لمعجم روبير[3] فإن الدلالة الغالبة على مفهوم العنف نجد استعمال القوة، كما نجد أيضا أنه يقسم إلى عنف جسدي وآخر أخلاقي .

وبتأملنا لهذه التحديدات سنجد أنها تشترك جميعا في أن العنف عبارة عن سلوك يتضمن معاني الشدة والقسوة واللوم، ويظهر أن أوضحها يكمن في الدلالة اللاتينية للمفهوم، إذ حدد العنف من خلالها كاستخدام غير مشروع للقوة المادية، بأساليب متعددة من عقاب واغتصاب وإضرار بالآخرين، وبالممتلكات، لكن هذا القصد الدلالي للمفهوم سيجعلنا نفكر في قيمة الاستخدام المشروع للقوة المادية للإضرار بالآخرين وبممتلكاتهم، هل ذلك لا يعتبر عنفا؟

ترى في هذا الصدد "Hannah Arendt" في كتابها " من الكذب إلى العنف" أن القوة لا تتحول إلى عنف إلا عندما تستخدم كأداة للسيطرة والهيمنة، ولعل هذا الطابع الغائي الذي يتسم به العنف البشري، وما ينطوي عليه من عناصر القصد والإرادة والتخطيط هو ما يميزه عن باقي أشكال العنف التي نعاينها في العالم الطبيعي، ولدى باقي الكائنات الحية[4].

إن هذا التحديد للعنف يثير البعد الغائي في العنف، إذ يكون مقصودا ومخططا له، وهذا ما يجعله يختلف عن العنف لدى باقي الكائنات الحية، مما يجعل العنف يشير إلى مدى واسع من السلوكات التي تعبر عن حالة انفعالية تنتهي بإيقاع الأذى أو الضرر بالآخر، سواء أكان هذا الآخر فردا أو شيئا.

إذا كان العنف هنا كسلوك يعبر عن حالة انفعالية تنتهي بإيذاء الآخر كيف ما كان فردا أو شيئا فإن المكان والمجال الطبيعي لدراسته تستوجب تجاوز البعد الدلالي للمفهوم وصولا إلى البعد الانفعالي النفسي والبعد السلوكي وما يرتبط به من مفاهيم . فإيذاء الآخر يعتبر في حد ذاته عدوانا، لكن العدوان يختلف عن العنف من حيث كون هذا الأخير يمثل أقصى درجة في السلوك العدواني، فالعنف يصدر عن العدوان ولا يوجد عنف بدون شعور

---

[1] -أحمد مصطفى جابر « ضد العنف والتمييز» دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ ص: ٦٩.

[2] -العنف الأسري، سيكولوجية الرجل العنيف والمرأة المعنفة، منير كرادشة، عالم الكتب الحديث إربد -الأردن ٢٠٠٩ ص: ٣١.

[3] - Petit Robert par Paul Robert, Dictionnaire de la langue Française.- rédaction dirigée par A.Rey et REY-Debove.107 avenue Parmentier, Paris- XI, p : 2097

[4] -العنف، مقاربات فلسفية، حماني أقفلي، وليلي، العدد ١٤، أبريل ٢٠٠٩، مطبعة مرجان مكناس، ص :٨٠

مسبق بالعدوان، إنه بالإضافة إلى هذا يعتبر أحد الوسائل للتعبير عن العدوان، كما يمكنه اتخاذ عدة أنماط سلوكية أبرزها أعمال القوة. فهو سلوك لا يمكن التنبؤ ببدايته ونهايته، ودوافعه متعددة على حد تعبير الباحث النفسي والاجتماعي "المصطفى حدية" ١.

إن ما يمكن استنباطه من هذا التحديد هو أن العنف يتجاوز العدوانية من حيث الدرجة، هذه الأخيرة التي وصفها "مصطفى حجازي" ٢ بأنها تنخر في الوجود الإنساني لاسيما المقهور منه، وهي عبئ وتهديد للتوازن النفسي، ودافع للإقدام على بعض تصرفات تدمير الذات، وكدفاع وانتفاضة ضد التهديدات التي من الخارج ٣.

يدفعنا استحضار البعد النفسي لمفهوم العنف إلى مفهوم آخر وهو الغضب. يعرف "الفقيه الرازي" ٤ الغضب بأنه هوى النفس مركب في طبع الآدمي لدفع شيء مؤذ عن نفسه ويطلب فيه التوسط، لأن الإفراط فيه يضر بالغاضب أكثر مما يضر بالمغضوب عليه، وهو وسيلة للتعامل مع البيئة المهددة، ويتضمن استجابات طارئة وسلوكا مضادا لمثيرات التهديد، كما تصاحبه تغيرات فسيولوجية، لإعداد الفرد لسلوك يناسب الموقف المهدد، وهو نوعان: غضب محمود وغضب مذموم، فأما الأول فهو ضد الظلم والطغيان، وأما الثاني فإنه يكون لأجل المصالح الشخصية والبواعث الأنانية.

وقياسا على مفهوم الغضب كما تناوله" الرازي" ، وقسمه إلى غضب محمود وآخر مذموم، قد انقسم العنف هو الآخر إلى محمود وآخر مذموم، وهذا سيفتح لنا آفاق التفكير في تصنيفات العنف، إذ يشير العنف المحمود إلى العنف المشروع ويشير العنف المذموم إلى العنف غير المشروع، وهذا هو التصنيف السائد للعنف في معظم الدراسات الاجتماعية والسياسية.

تميز الدراسات الاجتماعية والسياسية بين العنف المشروع والعنف غير المشروع؛ أي العنف الضروري لتفادي عنف أكبر، وكثيرا ما يستمد مشروعيته من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم بها باعتباره شرطا من شروط الاجتماع البشري، ويعد كل عنف يخرج عن هذا الإطار عنفا غير مشروع ، وقبل التوسع في الحديث عن مشروعية العنف والذي قد يجرنا إلى الحديث عن العنف عبر التاريخ، يمكن أن نخلص بعد هذا التحليل المفاهيمي للعنف إلى تعريف عام يمكن اختصاره كما يلي:

---

١ -المصطفى حدية: قضايا في علم النفس الاجتماعي، الطبعة ١ -٢٠٠٥ ربانيت، الرباط، ص: ١٧٤

٢ - مصطفى حجازي ٢٠٠١: : التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة ٨ - ص: ١٦٧.

٣ -يقدم حجازي تفسيرا للعدوانية كدافع نفسي يهدف تدمير الذات كما تحدث أيضا الباحث المغربي مصطفى حدية عن العدوانية واعتبرها تبقى مجرد استعداد كامن وغير جلي لدى الكائن الاجتماعي.

٤ - عبدالرحمان مصلح الشرادي "انحراف الأحداث في التشريع المغربي والقانون المقارن"، مطبعة الأمنية، الرباط، الطبعة الأولى ٢٠٠٢ ص:

"العنف هو كل استعمال للقوة يضر بالغير نفسيا أو جسميا أو رمزيا، فهو سلوك أو فعل مدمر يوجه إلى الآخر شيئا أو فردا للسيطرة عليه أو حرمانه من حقوقه أو القضاء عليه، لإشباع رغبات أو أهداف مادية أو معنوية، وقد يكون موجها للذات بنفس الكيفية التي يوجه بها ضد الآخر".

أشكال العنف ومظاهره :

جاء في تقرير منظمة الصحة العالمية لعام ١٢٠٠٠ أن العنف يقسم إلى ثلاثة أنواع:

١ - العنف الموجه نحو الذات:

يتجسد هذا النوع في إلحاق الأذى بالذات ويتضمن السلوك الانتحاري وذلك منذ مجرد التفكير بالانتحار مرورا بالتخطيط لارتكابه حتى تنفيذ الفعل.

٢ - العنف بين الأشخاص:

يتمثل في العنف بين شخصين، وإذا كان بين أفراد الأسرة الواحدة فإنه يدخل في إطار العنف الأسري أما إذا وقع بين أشخاص ليس من أفراد نفس الأسرة ولا تجمعهم صلة قرابة ولا يعرفون بعضهم فإن ذلك يدخل في إطار العنف المجتمعي.

٣ - العنف الجماعي:

٤ - يتمثل في سلوك جماعي يقوم به أشخاص باعتبارهم أعضاء ينتمون إلى جماعة معينة ضد جماعة أخرى، ويتأسس هذا العنف على الصراع حيث العنف والعنف المضاد وذلك لتحقيق أغراض اجتماعية.

٥ - صور العنف : أمراض اجتماعية [٢]

١ - الاعتداءات الجسدية:

٢- تتمثل في الأذى المباشر والمادي على الجسد، كالضرب والصفع واللكم والرفس، التي قد تنتج عنها جروح أو كسور أو إعاقة أو قتل. وذلك حسب الطريقة المستخدمة في ممارسة العنف والتي تتراوح بين عنف باليد أو الرجل إلى استخدام أدوات وآلات حادة كالسكين أو العصا، أو قطعة حديد أو سلاح قاتل .

٣ - الاعتداءات النفسية والمعنوية:

يقول المثل الشعبي في ثقافتنا " اللهم ضربة بدمها أو كلمة بسمها" كذلك تنظر ثقافتنا إلى أن الكلام المسموم أكثر خطورة من الضرب المفدي إلى الجرح. ولعل هذا الموقف الذي تزعمه الثقافة الشعبية نجده يتناغم ومنظري الجوانب النفسية في الإنسان،فالسب والشتم و الإهانة والحط من قيمة الشخص المعنف ورميه بألفاظ

[١] - كاظم الشيب " العنف الأسري" قراءة في الظاهرة من أجل مجتمع سليم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، المغرب ص ٢٩.

[٢] -العنف الأسري: " كاظم الشيب " مرجع سابق، ص ٣٠.

دنيئة قد تؤثر عليه وتسقطه في دوامه من المشاكل والاضطرابات النفسية والمعنوية ، وقد ينهج سلوكا عنيفا مضادا .

٤ - الاعتداءات وسوء المعاملة المادية والاقتصادية :

يكمن ذلك في الضغوطات المادية أو العقوبات الاقتصادية التي قد يمارسها الكبار أو من يتحكم في مورد الرزق للضغط على المعتدى عليه أو عقابه أو تأنيبه وكمثال على ذلك في الأسر كأن يحرم الزوج زوجته من نفقتها، أو من بعض حاجاتها الضرورية كمصاريف البيت أو عدم شراء الملابس حتى في المناسبات ولو كانت قد تعودت على ذلك من قبل، وقد نجد مثالا على ذلك في حالة ضغط الآباء على أبنائهم وبناتهم بحرمانهم من اقتناء الملابس التي يعشقونها ولو كانت في استطاعتهم لشراء ذلك، وقد يصل الضغط إلى متطلبات الدراسة أحيانا.

٥ - الاعتداءات الجنسية:

٦ - تتمثل الاعتداءات الجنسية بشكل عام حالات العنف الجنسي والقيام بأعمال جنسية فاضحة، ويعتبر الاغتصاب أحد أخطر أنواع هذه الممارسات الجنسية العنيفة، بحيث تصاحبها اعتداءات جسدية مادية مباشرة، كما قد تصاحبها أعراض نفسية أو نفس جسدية.

استنتاج

إن ما يمكن الخروج به في مسألة العنف هو أنه يظهر على شكل اعتداءات من أصناف شتى فالعنف من جهة يقسم إلى ثلاثة أنواع: أ -عنف موجه نحو الذات -ب -عنف بين الأشخاص -ج -عنف جماعي .

ومن جهة أخرى يعتبر العنف مرضا اجتماعيا يتخذ صورا متعددة يمكن تصنيفها في خمس صور من الاعتداءات وهي :

١ - الاعتداءات الجسدية

2 - الاعتداءات النفسية والمعنوية

3 - الاعتداءات وسوء المعاملة المادية والاقتصادية

4 - الاعتداءات الجنسية

الاتجاهات المفسرة للعنف :

أولا :التناول الفلسفي للعنف

يؤسس التناول الفلسفي ثلاث مفارقات حول العنف؛ فهو أولا مفهوم لا بد من تحديد ماهيته، وهو ثانيا قضية إنسانية تهدد أمن ووجود الإنسان، كما أنه ثالثا إشكالية فلسفية تنطوي على عدة ألغاز ترتبط بأشكال العنف، وبدوره في التاريخ، وبمشروعيته، وبماهيته في الوجود الإنساني ، فما هي أشكال العنف؟ وما دوره في التاريخ؟ وكيف يمكن القول بعنف مشروع وآخر غير مشروع؟

ممالا شك فيه أن العنف من صميم الوجود الإنساني إنه مرتبط بالتجربة الإنسانية الفردية والجماعية، مما يتطلب تحديد علاقته بالتاريخ البشري، وفي هذا الصدد يضعنا التناول الفلسفي أمام مفارقة تفتحنا على مقاربتين يمكن لمسهما من خلال الإشكال الموالي:

بأي معنى يمكن الحديث عن دور العنف في التاريخ؟ هل العنف ظاهرة عابرة أم أنه مؤسس ومدشن للتاريخ الإنسانية؟

المقاربة الأولى: العنف مؤسس ومدشن للتاريخ

تؤكد هذه المقاربة أن بفضل العنف وجد المجتمع، وتكونت الحضارة وقد اتفق في ذلك فلاسفة العقد الاجتماعي[1]، على أن الإنسانية عاشت حالة الطبيعة ثم انتقلت إلى حالة المدنية، وفي هذا السياق يقول: " ج –ج روسو" في كتابه العقد الاجتماعي [2]" إن الانتقال من حال الطبيعة إلى الحال المدنية أوجد في الإنسان تبدلا ملحوظا، إذ أحل في سلوكه العدل محل الوهم الفطري، وأكسب أفعاله أدبا كان يعوزه من قبل، عند ذاك فقط إذ حل صوت الواجب محل الباعث المحرك الجسماني، والحق محل الشهوة ".

إن ما يشير هنا إلى أن العنف في التاريخ البشري هو حالة الطبيعة المتميزة بالوهم الفطري والباعث المحرك الجسماني والشهوة، وذلك في مقابل حالة المدنية أو الثقافة التي انتقل إليها بعد نوع من التعاقد بين أعضاء المجتمع حيث يتنازل الناس عن قسط من حقوقهم وحرياتهم لصالح المصلحة العامة، ولعل ذلك واضحا من خلال قول روسو: " إن ما يفقده الإنسان بالعقد الاجتماعي هو حريته الطبيعية، والحق غير المحدود الذي كان له كل ما يستهويه ويجنيه ويمكنه الوصول إليه، وأما ما يكتسبه فالحرية المدنية "[3].

إن العنف هنا هو سر الانتقال من حالة حرب الكل ضد الكل على حد تعبير" توماس هوبز" وهي حالة عنف معمم، تحول الحياة الإنسانية من حياة حيوانية عنيفة[4] ليس فيها أمن إلى حالة مدنية وهي حالة النظام والقانون المتعاقد عليه لذلك يؤكد روسو على ضرورة عقد اتفاقات وسن قوانين توحد بين الحقوق والواجبات بهدف إقرار العدالة[5]. وهكذا فكل امرئ إنما يلتزم بتعاقده مع الآخرين على تأليف هيئة سياسية واحدة – بالخضوع لقرارات الأكثرية والتقيد بها [6].

---

[1] – فلاسفة العقد الاجتماعي: يقصد بهم الفلاسفة الغربيين الذين يروا أن أصل الاجتماع الإنساني نتاج تعاقد وميثاق انتقل الإنسان من خلاله من حالة الفوضى والحرب وهي حالة الطبيعة إلى حالة الثقافة والنظام وهي حالة المدنية أبرزهم ج.ج. روسو، وطوماس هوبز.

[2] – ج. جاك رسو: العقد الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٧٢ ص ٣١.

[3] – نفس المرجع ص 31

[4] - Thomas Hobbes, le Léviathan, traité da la matière et la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, chap. XIV trad. Fr.traicand, Sirey 1971 pp120.

[5] -JJ. Rousseau, le contrat Social, PUF, France 2000 deuxième Livre, chap. VI

[6] – ج.لوك، في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، عن محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، حقوق الإنسان، دار توبقال للنشر ط ٢ –٢٠٠٤ ص ٢٦.

إذا كان التعاقد على اتفاقات وقوانين يشكل بداية قيام الدولة وقيام الحضارة فبهذا المعنى يعتبر العنف مؤسسا للتاريخ البشري، إذ جاءت الحضارة والثقافة في نظر" سجموند فرويد" لتخفف من حدة الدوافع العدوانية من خلال غرس القيم الأخلاقية والاجتماعية في النفوس وجعل العلاقات بين الناس تقوم على التعاون والحب، بالرغم من أن" فرويد" ينتقد الدولة بقوله: لئن كانت الدولة تمنع الفرد من اللجوء إلى الجور والظلم، فليس ذلك لأنها تريد تحقيق العدالة والقضاء على الظلم، بل لأنها تريد احتكار استعماله[1].

المقاربة ٢: العنف مرتبط بالتطور التاريخي والاقتصادي والاجتماعي

يرتبط العنف في هذا المنظور بالتطور التاريخي، وهذا التطور وليد الصراع الطبقي، ويمكن التمييز بين نوعين من العنف، العنف الرجعي، وهو مذموم وغير مقبول، والعنف الثوري الذي يخدم القضاء على الاستغلال، وهو المدخل لتحقيق القضاء على الرأسمالية، فالعنف هنا نتاج لصراع المصالح، إنه إفراز تاريخي ناتج عن تعارض المصالح عند ظهور الملكية الخاصة.

ويمكن إضافة نوع آخر من العنف، وهو العنف السياسي، والذي يرتبط ببروز المجتمع الطبقي القائم على الإقصاء الاجتماعي لمن لا يملك وسائل الإنتاج، إذ يصير كل نمط إنتاج اقتصادي معين يخفي تناقض بين قوى وعلاقات الإنتاج، مما يتفجر في صراع طبيعي عنيف يتفاقم حتى يصير إلى عنف ثوري، ودور العنف في التاريخ هنا هو دور ثوري مرتبط بنمط وبطبيعة الانتظام للتطور الاقتصادي للقضاء على الأشكال السياسية الجامدة التي تخدم جهة أو طبقة على حساب أخرى.

إن العنف الثوري هنا هو عنف جماهيري يشكل ضرورة تاريخية تلجأ إليها الطبقة غير المستفيدة من الإنتاج وهي الطبقة العمالية حسب التصور الماركسي للانتقال من النظام الرأسمالي حيث العنف السياسي والفقر والاغتراب والاستلاب إلى نظام اشتراكي.

لكن إذا تأملنا هذا التحليل الذي يقترح نفسه كتحليل علمي بالرغم من أنه وصف بالإيديولوجي، فإنه في غياب التفاوت ومحاولة إفراز المساواة لن يغيب القهر والاغتراب بقدر ما يمكن أن نسقط في المساواة الجائرة ،والتي تصدر حسب صاحب كتاب " الإنسان الحاقد" [2] عن الكراهية والحقد، كما أنها تقضي على الاختلاف في المؤهلات فتجعل الأشخاص ذو المستوى العالي في مرتبة من دونهم، وهنا قد نسقط من جديد في عنف جديد مصدره الحقد والكراهية. لكن بالرغم من كل ذلك وحتى لا تبدد الأطراف المتصارعة نفسها ويضيع المجتمع في صراع عقيم، فإنه تفرض الحاجة إلى سلطة عليها [3]، مما يجعلنا نرى أن العنف له امتدادات ذات بعد تاريخي مرتبط بالتطور وفق هذا التصور.

---

[1] - freud, Essais de psychanalyse , ed Payoy, p 240

[2] -ماكس شيلر، الإنسان الحاقد، وراد عن غايات بيكون،آفاق الفكر المعاصر، الترجمة العربية، منشورات عويدات، بيروت ص: ٨٧٠ -٨٦٨.

[3] - F.Engles, L'origine de la famille, tard. J. stern, ed. Sociales, Paris, p 281-286.

هكذا يمكن أن نفهم بأن التناول الفلسفي للعنف في بعده التاريخي يتلخص في : " إن ظاهرة العنف ملازمة للتاريخ البشري كضرورة محركة للاقتصاد، وكسر وراء قيام المجتمع وتأسيس الدولة، وصناعة الحضارة والثقافة".

في مشروعية العنف:

إن تأملا أوليا في عبارة :"مشروعية العنف" سيظهر أن العنف والمشروعية يوجدان على طرفي نقيض، فإذا كان العنف كما حددناه قبلا باعتباره فعلا مدمرا يضر بالآخر ولذلك يكون مرفوضا من طرف المجتمع، فإنه بالمقابل نجد المشروعية تستند على الحق وعلى القانون، وعلى العدالة . في هذا الصدد يمكن رصد تصورين، الأول يرفض العنف ويسحب منه صفة المشروعية، والثاني يقول بمشروعية استعمال العنف.

الاتجاه الأول: استعمال العنف غير مشروع:

يذهب هذا الاتجاه إلى رفض أن يكون العنف مشروعا، فالفيلسوف الألماني" كانط" مثلا يرفض كل أشكال العنف، الأمر الذي جعله ينتقد ما اتصفت به الثورة الفرنسية من مجازر، ويؤكد على ضرورة تجنب حرب الإبادة والتنديد بأي حرب تقوم بها دولة أو جماعة ضد أخرى سواء أكانت بهدف التصفية العرقية أو لاعتبارات سياسية أو اقتصادية أو إستراتيجية، إذ يقول كانط " لا يمكن تصور حرب تأديبية بين الدول... فينتج عن هذا أن حرب الإبادة التي يمكن أن تؤدي إلى تدمير الطرفين ومعهما كل نوع من الحقوق، لن تدع مجالا للسلام الدائم إلا في المقبرة الكبرى للجنس البشري، ولهذا يجب أن نمنع مثل هذه الحرب منعا باتا" [1].

يتناغم هذا الموقف مع موقف صاحب كتاب " منطق الفلسفة [2] " الذي يقف ضد أي تبرير سياسي للعنف بحجة تنظيم وتدبير المجتمع ؛ فالعنف لا يمكنه أن يبرر من طرف العقل، أو أن يكون عقلانيا، لأنه يتعارض ويتناقض مع الفكر الذي يقتضي الحوار والاختلاف والاعتراف بالآخر.

إن سحب صفة المشروعية عن العنف نجدها أكثر وضوحا مع " غاندي" الذي انتهج طريق" اللاعنف" لمقاومة الاستعمار البريطاني للهند، وهكذا فإذا كان العنف حسب "غاندي" يعبر عن رغبة حاقدة وسيئة في إلحاق الأذى بالآخرين فإن " اللاعنف " يعبر عن الإرادة والرغبة الطبيعية ولا يعني " اللاعنف " الاستسلام والخضوع بل هو نضال ذهني وأخلاقي ومقاومة روحية، وشكل من أشكال القوة الإيجابية.

الاتجاه الثاني: مشروعية استعمال العنف

يعتبر أصحاب هذا الاتجاه أن العنف يعتبر شرطا ضروريا لتفادي عنف أكبر، وكثيرا ما يستمد مشروعيته من الوظائف الاجتماعية والاقتصادية التي يقوم بها باعتباره شرطا من شروط الاجتماع البشري [3] ؛ فهو ضرورة أخلاقية للحفاظ على الأخلاق،و مشروعية العنف ترتبط حسب عالم الاجتماع " ماكس فيبر" بوجود الدولة في معالمها

---

[1] - إيمانويل كانط، نحو سلام دائم، ترجمة عبد الرحمين بدوي، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٩ ص: ٢٢٨ -٢٢٩.

[2] - " أريك فايل" ١٩٠٤ -١٩٧٧) فيلسوف فرنسي من أصل ألماني، اهتم بتاريخ الفلسفة وبالقضايا السياسية والأخلاقية.

[3] - حناتي أقفلي: مرجع سابق، ص ١٠

العقلانية والمؤسسية، لأن الارتقاء بالسلطة إلى مستوى الفاعلية العقلانية المتحررة من الاعتبارات الوراثية والتقليدية، وتكييفها وفق أسلوب يمنح للنواميس والأنظمة الكفيلة بتقوية التنظيمات وتطويرها، كل هذا يجعل العنف مشروعا مادام نظام الدولة هو الذي استوجبه وأقر تنظيمه ١ . و للدولة حسب " ماكس فيبر" ثلاثة أسس للمشروعية منها سلطة الأمس الأزلي أي سلطة العادات والتقاليد وهي سلطة تقليدية والسلطة الكاريزمية، والسلطة الشرعية ٢ وهذه الشرعية التي تتأسس عليها الدولة هي التي تضفي الشرعية على سلوكاتها وإن كانت عنيفة، مما يجعل إمكانية مشروعية العنف مقبولة.

يتجلى ذلك بوضوح تام في كتاب الأمير " لميكيافلي" حين ينصح الأمير بأن يكون ثعلبا وأسدا في الآن نفسه ، فالأسد لا يستطيع أن يحمي نفسه من الفخاخ كما أن الثعلب غير قادر على مواجهة الذئاب، لذلك كان على المرء أن يكون ثعلبا ليواجه الفخاخ ويكون أسدا ليخيف الذئاب... وفي كافة أعمال البشر - وخاصة الأمراء. فإن الغاية تبرر الوسيلة، وهذا حكم لا يمكن نقضه٣ .

وهكذا يظهر أنه يجوز للأمير استعمال كل ما من شأنه تحقيق غايته، ولو استخدم القوة والعنف والإرهاب بل ولو تصرف كالحيوان لإرهاب الخصوم وفرض الاحترام؛ وهذا نموذج للعنف المشروع.

خطاب العلوم الإنسانية

أولا : الاتجاه النفسي في تفسير العنف

يرجع هذا الاتجاه بشكل عام إلى محددات وأسباب نفسية، فالفرد الذي يرتكب سلوكا عنيفا، إنما يتصرف بفعل أسباب نفسية ، وتكثر النظريات والآراء في هذا الصدد، فإذا كان البعض يرده إلى استعداد نفسي داخلي يفقد الفرد السيطرة عندما تتم استشارته أو تهييجه، فإن البعض الآخر، يرد العنف إلى قلق عاطفي وأن مرتكب السلوك العنيف يكون أكثر استجابة للغرائز المختلفة نتيجة لتكوينه النفسي، ونظرا لضعف قوة التحكم لديه.

ويعتبر العالم والطبيب والمحلل النفسي النمساوي "سيجموند فرويد" السباق إلى إحداث زعزعة كبيرة في نظرة الإنسان من خلال اكتشافه لما يعرف باللاشعور، بحيث يعتبره البعض وكأنما اكتشف قارة جديدة في مجال سيكولوجية الإنسان. يقول " فرويد " في كتابه قلق الحضارة «ليس الإنسان قطعاً ذلك الكائن الطيب، ذو القلب المتعطش للحب، والذي يُقال عنه إنه يدافع عن نفسه عندما يهاجم، بل إن الإنسان على العكس ن ذلك، فإنه يتحتم عليه أن يضع في حسابه معطياته الغريزية، وهي الحصول على قدر كبير من العدوانية٤» .

---

١ - محمد ياسين: "ثقافة العنف: الأسس والفاعلية"، مجلة وليلي عدد ١٤، مطبعة مرجان ٢٠٠٩.ص ص: 43 -44

٢ - ماكس فيبر "رجل العلم ورجل السياسة، ترجمة نادر ذكرى، بيروت، دار الحقيقة ١٩٨٢ ص ص: ٤٧ -٤٨

٣ - مكيافيللي: " كتاب الأمير"، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة ٢٠٠٤ ص ص: ٨٩ -٩٠ -٩١

٤ - جرائم العنف وسبل المواجهة: عبد الله عبد الغني غانم، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص: ٩٠.

في هذا الصدد يفترض معنا "فرويد" بوجود غريزتين أساسيتين في الإنسان، الأولى تسمى "أيروس" أو إله الحب في الأساطير اليونانية وتسمى أيضا غريزة الحياة تتضمن مجموعة من القوى والدوافع الغريزية وتهدف دائما وأبداً إلى اللذة الجنسية والحفاظ على النوع البشري، أما الثانية، فهي غريزة الموت أو الهدم كمؤسس للدوافع التدميرية وترتبط بالعدوانية والعنف ولها عدة تجليات كالإقصاء والاعتداء ومحاولات التدمير والقضاء على الآخر أو ممتلكاته أو حتى القضاء على الذات.

وتشتغل الذات الإنسانية من خلال صراع مستمر بين غريزة الحياة من جهة وغريزة الموت من جهة ثانية .والسلوك العدواني والعنيف هنا هو اندفاع مرتبط باندفاعات جنسية. و"مبدأ اللذة"هنا، يستهدف أمرين: الأول يحشد طاقاتنا للحياة بأسباب البقاء . الصراع من أجل البقاء . والأمر الثاني يدفعنا إلى الرغبة في الموت من خلال ازدواجية عاطفية تلازم النفس البشرية تتصارع أثناءها إرادة الحياة مع إرادة الموت[1]، ويشير "فرويد" إلى أن الاضطرابات العائلية التي يخبرها الطفل في مرحلة الطفولة المبكرة والعلاقات غير السليمة تنعكس سلبا على حياته مستقبلا، وتبقى رواسب هذه الخبرات عالقة في شخصية الفرد على شكل تراكمات تصبح دافعا لاشعوريا لانحرافه[2]. ومع تطور التحليل النفسي وإدخال تغييرات جدية على مستوى تفسيره للذات الإنسانية ظهرت تأويلات وتصنيفات أخرى للسلوك العدواني أو ما يسمى لدى الحس المشترك بالجنون أو فقدان العقل، يكون العنف والعدوان خلالها نتاجا لتوهمات وهلوسات، إذ يخلق الذهان توترات وصراعات اجتماعية وجنسية، كما يمكن تصنيفه ضن الحالات السايكوباتية أو الشخصية المضادة للمجتمع.

ويمكن فهم ذلك أكثر من خلال ما يشبه عصرا جديداً للتحليل النفسي بدأ بظهور كتاب فرويد "الأنا والهي" سنة ١٩٢٣ ، قسم من خلاله العقل إلى ثلاثة مجالات رئيسية، الأنا (الشعوري)، و"الهو" (المستودع اللاشعوري للقوى الدافعة الغريزية) و"الأنا الأعلى" (العناصر الأخلاقية)، ويمثل الأنا الأعلى أكثر المفاهيم أهمية لكونه يتشكل نتيجة عمليات متميزة حيث استدماج السلطات الأخلاقية المهيمنة في الحياة المبكرة، وتوجيه نسبة معينة من الليبيدو[3] النرجسي إلى تلك الأخلاقيات المستدمجة و المستدخلة بحيث لا يصبح الفرد محبا لذاته كما هو فحسب ولكن كما "يجب" أن يكون ارتداد دفعات الكراهية والعدوان التي لا يمكن التعبير عنها خارجيا إلى ذات الشخص[4]، وتختلف الآراء حول الدافع المباشر للعنف فهناك من يرجعه إلى ضعف الأنا الأعلى أو غيابه أو قسوته، فكثير ما تكون مطالب

---

[1] – جرائم العنف وسبل المواجهة: عبد الله عبد الغني غانم، مرجع سابق، ص: ٩١.

[2] – واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي، د أكرم عبد الرزاق المشهداني، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى الرياض 1426-2005، ص: ١٣٦.

[3] – الليبيدو: libido كلمة لاتينية ومعناها: التلذّذ استناداً إلى شهوة حسية. وفي ضوء التحليل النفسي هي الطاقة النفسية الأساسية للكائن الحي، وقد ارتبطت في البداية بالطاقة الجنسية، ولكن بعد اكتشاف غرائز الموت، وغرائز الحياة، أصبحت تعني طاقة الحياة النفسية للكائن الحي.

[4] – علم النفس في مائة عام، ج.ل.فلووجل، ترجمة: لطفي فطي، دار الطليعة، بيروت، ط: ٤، ١٩٨٨، ص: ٢٠٠.

الأنا الأعلى أكثر صرامة وقسوة حتى من السلطات الخارجية وهنا تدخل القاعدة العامة القائلة بأن الغرائز التي لا تستطيع أن تجد إشباعا خارجيا تتجه إلى استنفاذ طاقتها داخل الكائن نفسه، والغريزة في هذه الحالة هي العدوان، ويُثار العدوان بالإحباط الذي تعرض له الكائن منذ طفولته، وإذا كانت السلطات الخارجية لطيفة ومتسامحة فإن توجيه هذه العدوانية نحوها يصبح أكثر صعوبة مما لو كانت عنيفة "لأنها تبدو في هذه الحالة لا تسحق العدوان"[1]، لذلك تتجه إلى جهة أخرى لإيجاد مخرج بديل عبر عمليات لاشعورية، يُطلق عليها اسم الميكانيزمات الدفاعية[2].

وتجدر الإشارة هنا إلى أنه لا ينبغي اختزال التحليل النفسي في شخص فرويد، ولكنه توسع مع "أدلر" و"يونج" فقد قدم "أدلر" الكثير من الإضافات القيمة إلى دراسة الذات والعدوان، تجاوزت مفهوم الجنس والصراع النفسي والكبت والتكثيف والإزاحة وحتى فكرة اللاشعور، بل امتد اللاشعور مع ثورة "يونج" ليشمل طبقة أعمق تشترك فيها كل السلالة، هي "اللاشعور الجمعي"، الذي يحتوي على "الأنماط القديمة" التي تعبر عن المفاهيم والحاجات والطموحات البدائية للبشرية، وكذلك "اللاشعور الشخصي"، الذي يتضمن المواد المكبوتة من خبرة الفرد نفسه[3].

وقد زعم بعض علماء النفس أن تجارب الإحباط الشديد في مرحلة الطفولة والمراهقة تؤدي إلى مخزن من الغضب نحو الآخرين، قد ينتهي بالقيام بسلوك عنيف معهم بما في ذلك قتلهم، وقد انتهى "بالمر" من دراسة له عن القتلة إلى أنهم قد مرّوا بصدمات وإيذاء يعادل ضعف ما تعرض له غير القتلة، وذلك خلال مرحلة طفولتهم ومراهقتهم، وتتمثل هذه الخبرات المرضية في معاناة الميلاد، والعمليات الجراحية الخطيرة والأمراض والحوادث الخطيرة، والضرب والإيذاء البدني من غير الوالدين والعيوب الخلقية، والتعرض لنظام صارم، وأم مهملة، والتبول الليلي والتأتأة ومصاعب الدراسة، مع أعراض تثير المعاناة من إحباط كبير ينجم عنه إحباط أكبر[4].

والخلاصة مما سبق ذكره هو أن المدخل النفسي للعنف سواء من جهة التحليل النفسي أو مختلف الاتجاهات النفسية والأبحاث المستحدثة ترتكز على أهمية البعد النفسي للعنف، وبالرغم من وجود انتقادات لاسيما للتحليل النفسي يبقى هذاالبعد النفسي والجانب التحليلي للشخصية الإنسانية غاية في الأهمية، لكن السؤال الذي يجب وضعه في هذا السياق، هو هل الجانب النفسي هو البُعد الوحيد لتحديد العنف في شموليته وحقيقته؟

---

[1] -المرجع السابق، ص: ٢٠٠.

[2] -الميكانيزمات الدفاعية: يعود هذا المصطلح في نشأته إلى"سيجموند فرويد" ويعنى بها الحيل الدفاعية هي عبارة عن أنواع من السلوك أو التصرفات التي ترمي إلى تخفيف حدة التوتر النفسي المؤلم والقلق وحالات الضيق التي تنشأ من استمرار حالة الإحباط مدة طويلة بسبب عجز الإنسان عن التغلب على العوائق التي تعترض إشباع دوافعه وهدفها وقاية الذات والدفاع عنها وتحقيق والاحتفاظ بالثقة في النفس واحترام الذات وتحقيق الراحة النفسية والأمن النفسي

[3] -المرجع نفسه، ص: ٢٠٦.

[4] - عبد الله عبد الغني غانم جرائم العنف وسبل مواجهته، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى الرياض2004-1425.ص ص 95-96:

وجهة نظر علم نفس الحيوان[1]:

عمد "كونراد لورنز" إلى دراسة العدوانية لدى الحيوانات فبين أن شراسة الحيوان المفترس ودمويته ليست سوى أسطورة، والعلاقات الدموية والعدوانية المُفرطة لا تلاحظ إلا بين الحشرات، وللعدوانية وظيفة تحدد في أربع نقط:

- الدفاع عن المجال الحيوي عن الطريدة أو منطقة الصيد
- البحث عن الغذاء
- المكانة المرتبية ضمن الجماعة بُغية تحقيق توازن وظيفي وأعلى مكانة هي حماية الجماعة من الأعداء وحراستها
- التزاوج إذ تبرز أشكال القتال ضراوة بين أفراد الجنس نفسه، وتكتب الغلبة للأقوى مما يؤدي إلى تطور الجنس.
- وقد استخلص "لورنز" من دراساته على سلوك الحيوان في القتال عدة أشياء أهمها أن كل سلوك عدواني لدى الحيوان أو كل ميل عدواني يقابله ويضبطه ميل كابح يمارس عمله من خلال سلوك طقسي conduite mutuelle يقوم به الحيوان الأضعف، وتزداد قوة الكابح كلما ازدادت الميول العدوانية والسلاح العدواني، ومن هذا المنطلق يرى "لورنز" أن مأساة الإنسان بعدوانيته التي تتفجر عنفا وشراسة وحقداً تعود إلى فقدانه التكيف النزوي، أي فقدان الكوابح الغريزية لعدوانيته التي حلت حلها الكوابح الخلقية والحضارية، كما يؤكد على وجود ما يسمى بالحماس المناضل Enthousiasme militant، وهو نوع من العدوان المشترك يرتبط بالانتماء إلى جماعة ما، يظهر عند الإنسان والحيوان ويستند إلى غريزة تنطلق في ظروف خاصة للدفاع عن الجماعة، والحماس المناضل استجابة انفعالية لا تخضع لمنطق أو إقناع عقلاني، ومن شروطه الأساسية :
  - الإحساس بتهديد فعلي للجماعة التي ينتمي إليها
  - وجود عدو خارجي محدد هو مصدر التهديد
  - ازدياد عدد أفراد الجماعة التي تلتف حول الزعيم البطل

ثانيا : الاتجاه البيولوجي :

ارتبط الاتجاه البيولوجي في تفسير السلوك العنيف تاريخيا بالطبيب الإيطالي "لومبروز Lombroso "فهو صاحب مفهوم " المجرم بالميلاد" وهو الإنسان الذي تتوفر فيه مجموعة من الصفات من بينها عدم تناسق شكل الجمجمة وضخامة الفكين وبروز عظام الخد ورقة الشفة العليا عن السفلى وكبر الأذنين وكثافة الشعر، ثم يتبعها

[1] - مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، المركز الثقافي العربي، ط: ٨، ٢٠٠١، بيروت. لبنان، ص: ١٨٤ -١٨٥.

بعض الصفات النفسية التابعة منها ضعف الإحساس بالألم والميل إلى العدوان وانعدام الشعور الخلق وقصر النظر والغرور.

يستنتج Lombroso وكما هو معلوم من خلال بحوثه أثناء عمله في الجيش الإيطالي أن المجرمين الحقيقيين هم المتخلفون في تطورهم أو العائدون إلى صفات الإنسان الأول، وهنا يمكن تشخيصهم من خلال ملامحهم البدنية من أشكال أبدانهم ووجوههم وأيديهم، ومنه فإن هؤلاء الأشخاص المتخلفون غير قادرين وراثيا على السلوك القانوني والسوي ١.

وفي نفس الاتجاه يذهب دي توليو Detullio الذي وضع نظرية التكوين الإجرامي أو الاستعداد السابق للإجرام عام ١٩٤٥ تبين وجود أفراد لديهم استعداد أو ميل إلى الجريمة لا يتوفر لدى الآخرين معتبرا أن الظروف البيئية لا تثير النزعة العدوانية لدى الجميع فهي تشكل مثيرات كاشفة لنزعات المفطورين (المجبولين) على السلوك العدواني والإجرام، إذ يوجد عيوب في إفرازات الغدد الداخلية.

وبشكل عام يفسر العنف بيولوجيا بكونه شذوذ في التركيب الجيني أو التركيبة الوراثية، إذ تركز الأبحاث في هذا الجانب على التكوين الجيني أو تكوين الكروموزمات لدى الإنسان هي ٤٦ وحدة صبغية. كروموزوم. منها ٢٢ زوجا متشابها تشابها كليا وكل صبغ أو كرموزوم يحتوي على آلاف المولدات الكهربائية في حين أن الزوج الثالث والعشرين وهو زوج الصبغيات أو الكروموزمات الجنسية يختلف حسب الجنسية للمرأة صبغيين متشابهين (××) أما الرجل فله صبغيين مختلفين (yx).

في هذا السياق الذي ننظر فيه إلى الإنسان نظرة بيولوجية تتجه الدراسات إلى أن الأفراد العدوانية والعنيفين لدى أغلبهم حالات من الشذوذ في صبغتهم الجنسية بحيث قد تؤدي زيادة (x) واحد أو اثنين إلى تخلف عقلي، كما أن زيادة (y) واحدة قد يكون لها تأثير في الغرائز العدوانية. وقد تحدث "ميشيل كورناتون" في كتابه جذور العنف الحيوية النفسية والنفسية الاجتماعية٢، على أنه قد لوحظ بالفعل وجود نسبة كبيرة من صبغية (XYY) وهي غير طبيعية بين المجرين العنيفين.

لذلك حاول بعض الباحثين الربط بين حالات الشذوذ في الصبغيات وبين الميولات إلى العنف والعدوان لدى الإنسان.

إن هذا التفسير البيولوجي للعنف وصل إلى حد أن بعض علماء الأعصاب قام بوضع خريطة للنزاعات الدماغية الشاذة التي تتعلق بالسلوك العدواني والعنيف، كما حاول آخرون إبراز العلاقة بين السلوك العنيف من جهة وكيميائية الدماغ من جهة أخرى٣.

---

١ - واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي، د أكرم عبد الرزاق المشهداني، مرجع سابق ص ١٣١.

٢ - المرجع: جرائم العنف وسبل الواجهة، عبد الله عبد الغني غانم، مرجع سابق، ص: ٦٩.

٣ - المرجع السابق، ص: ٧٠.

ويعود التفسير البيولوجي للعنف حديثا إلى ما توصل إليه فريق هولندي بالتعاون مع علماء من الولايات المتحدة لما اكتشف فريق البحث صدفة أن الرجال في إحدى العائلات الهولندية قد ارتكبوا على مدى خمسة أجيال أعلى عنف واغتصاب وإحراق ممتلكات، كما تبين أن أولئك الرجال يعانون خللاً جينيا جعل الأنزيم المسؤول عن تنظيم السيروتوتين الذي تفرزه المراسلات العصبية عاجزاً عن العمل&.

وإذا كانت الدقة والصرامة العلمية تفيد بعدم تعميم نتائج مثل هذه الأبحاث وهو الأمر الذي ينتصر إليه "هان برونر" عالم الوراثة الهولندي، وعضو فريق البحث السالف الذكر، فإن بعض الدراسات والأبحاث الحديثة تفسر العنف بوجود مورثات جينية تسبب إنتاج هرمونات معينة أو تغير الإفرازات الهرمونية في الجسم قبل الولادة أو بعدها مباشرة[١] .ويمكن النظر إلى تجليات التفسير البيولوجي للعنف كما يلي:

١) وراثة الحماقة:

يعتبر هذا الموقف امتداداً لما قام به علماء الفراسة في منتصف القرن التاسع عشر، فبعدما درسوا شخصية الفرد من خلال مواضع ونتوءات في الرأس، ووضعوا خريطة لجمجمة الإنسان وحددوا المنطقة رقم ٦ "من بين ٣٥ منطقة" على أنها هي المسؤولة عن العنف والنزعات التدميرية في الإنسان، جاء بعض البيولوجيين ليفسروا العنف وارتباطاته من إدمان للكحول وجرائم بسبب سمة واحدة وهي "الحماقة" باعتبارها حالة موروثة تنقل من جيل لآخر شأنها في ذلك شأن وراثة لون الشعر أو العيون.

في هذا الصدد يفسر أحد رواد هذه الدراسات في الولايات المتحدة الأمريكية "هنري جودراد"، حالة الحمقى بكونهم عبارة عن أشكال إنسانية غير متطورة، بل مجرد كائنات حيوانية ذات ذكاء ضعيف ويتمعون بجسد قوي، إلا أن هذا الزعم يمكن وصفه بالتفسير الإيديولوجي السائد في الولايات المتحدة الأمريكية، ويعلل ذلك بقول "تشارلز ديفنون" مدير معهد كارنيجي في نيويورك وأحد علماء تحسين النسل المشهورين «إن التدفق الكبير للهجرة من شرق وجنوب أوروبا سوف يجعل الأميركي أكثر سمرة وأقل منزلة وأكثر مكراً وميلاً لارتكاب جرائم السرقة والخطف والاعتداء والاغتصاب» وكأنما المهاجرين يحملون في تكويناتهم الجينية موروثات العنف.

٢) النقص العقلي:

يفسر البيولوجيون في هذا الصدد العنف بكونه يرتبط بعيوب ونقائص تصيب العقل البشري، وقد أجريت أول دراسة من هذا النوع على أدمغة المجرمين عام ١٩٨٠ توصل من خلالها الباحثون إلى أن لمرتكبي جرائم العنف أدمغة

---

[١] - المرجع نفسه، ص: وفي هذا الصدد تؤكد البيولوجية الأميركية "كيت ماكبرنيت" الأستاذة بجامعة شيكاغو الأمريكية أن البداية المبكرة للسلوك العدواني واستمراريته مرتبط بوجود مستويات منخفضة من هرمون التوتر المسمى "كورتيزول" في اللعاب.

فوجود مستويات منخفضة من هرمون التوتر "كورتيزول" تشجع السلوك العدواني لدى الفرد في سن ٧ -١٢ سنة، وإن الأطفال الذين يرتكبون سلوكات عنيفة وعدوانية ويتورطون في جرائم أحيانا ليس لأن هناك خطأ في التربية، ولكن الأمر يتعلق بوجود مورثات جينية تسبب إنتاج هرمونات معينة أو تغير الإفراز الهرموي بشكل طبيعي.

تحتوي على مناطق غير نشطة تتعلق بمراكز السيطرة ويرجع أنهم تعرضوا في صغرهم (طفولتهم) للضرب على الرأس.

وما يزيد من أهمية هذا التفسير هو اكتشاف أحد العلماء النفسيين عام ١٩٩٧ من ولاية تكساس أن نزعات العنف والعدوان تعود إلى تلف في الفصين الأمامي والخلفي بأدمغتهم بسبب ما يلحق بالدماغ من أضرار. وهنا لا يستطيع الأشخاص الذين يُعانون من أضرار أو تخلف في نمو الفصوص أن يتحكموا بدوافعهم، وهكذا تم الربط بين النقص العقلي والعنف بالرغم من ما أبداه الكثيرون من تحفظ.

٣) انحرافات وظائف الدماغ:

يرتبط العنف بانحرافات وظائف الدماغ، ويستند رواد هذا التفسير وهم علماء الأعصاب إلى معطيات التشخيص بواسطة آلة قراءة الدماغ أو ما يسمى بجهاز رسم المخ وهي آلة تستخدم التصوير الرنيني المغناطيسي الوظيفي والتصوير الطبقي بانبعاث البيزترون للكشف عن الأخطار. وتعتبر حالة الفتاة المراهقة "جولي" التي أوردها "كولين بلاكمور" من جامعة أوكسفورد من أمثلة العلاقة بين العنف والخلل الوظيفي للدماغ، إذ لم تكن هذه الفتاة تستطيع التحكم بجسمها فطعنت امرأة في قلبها، ليكتشف الأطباء فيما بعد أنها كانت تُعاني من نوبات صرعية صغيرة تتركز في بقعة من الدماغ تسمى "اللوزة" تقوم بدور جهاز الإنذار في الدماغ لذلك يرى "كولين" أنه من العبث معاقبة مرتكبي أعمال العنف، بل يجب علاج أدمغتهم.

وقد نشرت دراسة عام ١٩٩٩ من طرف مجلة Natur Norscience في نفس الموضوع تكشف أن حدوث إصابات في سن مبكرة جداً في القسم الأمامي من الدماغ يمكن أن تحول الطفل إلى شخص بالغ غير مسؤول ومهمل وجامح.

ثالثا : الاتجاه الاجتماعي للعنف:

إذا كان الاتجاه النفسي يرجع العنف إلى محددات وأسباب نفسية، بحيث يتصرف الفرد بشكل عنيف بفعل أسباب نفسية فإن ما يؤخذ على هذا الاتجاه هو المبالغة والمغالاة في الانحياز لأهمية العوامل النفسية، ولعل تغييب الجانب الاجتماعي يشكل تغيباً وإقصاء لجانب مهم من حياة الإنسان . إن مشكلة العنف في هذا السياق يصعب فصلها على هو اجتماعي، إذ كيف يمكن أن نتحدث عن الفرد في غياب المجتمع ؟ . يؤكد عالم الاجتماع الفرنسي "إميل دوركايم" في كتابه "في تقسيم العمل الاجتماعي" بأنه "تنمحي فرديتنا (بالضرورة) عندما يشتغل التضامن الآلي[١]، فلا يكون الفرد فرداً بل كائنا منصهراً في "الجماعة"، وفي نفس المعنى يذهب الفيلسوف وعالم الاقتصاد الألماني كارل ماركس ليؤكد على أن الفرد ظهر ككائن مرتبط بمجموعة أوسع، يرتبط أولا ارتباطاً طبيعيا بالعائلة والعشيرة كعائلة ممتدة، ثم يرتبط بعد ذلك بالمجتمع في صورته الشمولية، لذلك لا يمكن إنكار البُعد الاجتماعي، ومن تم فالعنف باعتباره سلوكاً صادراً عن فرد لا يمكن هو الآخر فصله على ما هو اجتماعي.

[١] - التضامن الالي: يُقصد به تضامن أفراد المجتمع الواحد، بحيث يتجاوز إرادتهم ومصالحهم الخاصة، ولذلك ينشأ عن علاقات اجتماعية ناضجة تغلب فيها الهوية والمصلحة الجماعية والمشتركة.

وبالرغم من تداخل ما هو ثقافي مع ما هو اجتماعي في تفسير العنف فإنه يمكن تصنيف الاتجاهات الاجتماعية المفسرة للعنف حسب السمة الغالبة عليها إلى:

١: تفسير ثقافي

٢: تفسيراجتماعي

٣: التغير في المجتمع ونظمه

٤: اتجاهات تفسيرية أخرى

١) - التفسير الثقافي للعنف:

يتعلق العنف من حيث هو عنفاً أي من حيث معاييره والحكم عليه أنه كذلك بالثقافة السائدة، والتي تختلف من بلد لآخر، فالعنف قد يكون عنفاً في بلد ما وقد يكون سلوكاً عاديا في بلد آخر وذلك حسب الثقافات.

ولما كانت الثقافة تنشئ وحدة مشتركة رهن مرتكزات الأخلاق والمعرفة والعمل، ولما كان رفض الانتماء لثقافة ما والتكلم بلغتها وقبول نظامها ومعاييرها يعني رفض ثقافة هذه الجماعة فإن ذلك الرفض يعبر عن عدوانية ثقافية من جهة ويعبر عن مظاهر العنف من خلال آلية الصراع، لكن هنا نتجاوز المفهوم البسيط لمفهوم العنف إلى مفهوم أكثر أهمية وهو العنف الرمزي، وذلك من خلال لعبة العنف والعنف المضاد على المستوى الثقافي الرمزي، فعنف الزنوج مثلاً[١] في أميركا وهي الفئة التي تجمع الإحصاءات الأميركية على أنها الأعلى ارتكاباً لجرائم العنف، مرجعه ثقافي وهو أن شعار الثقافة الأميركية يرفع من قيمة الثراء وجعله غاية الغايات، وعدم فتح سبل مشروعة لكسب وبلوغ ذلك مثل تلك الفرص المتاحة للبيض. فكان من الطبيعي اللجوء للعنف خاصة وأن العنصرية والتحيز والتعصب القائم على العرق والسلالة تشكل في حد ذاتها عنفاً مما يؤدي إلى عنف مضاد ويؤجج الصراع كنتاج لتصادم ثقافتين.

وقد ذهب "هنتغتون في كتابه صدام الحضارات إلى أن العنف نتاج لصراع الثقافات، وهذا الصراع ينقسم إلى صراع داخلي وصراع خارجي. فالصراع الداخلي يختلف باختلاف الاتجاهات والقيم الاجتماعية داخل المجتمع الواحد تبعاً لاختلاف العادات والتقاليد والأنماط الثقافية. أما الصراع الخارجي فانه يمثل في التصادم بين اتجاهات ثقافية مختلفة، وأساليب السلوك الداخلية المرتبطة بثقافتها الخاصة، ويكون التصادم بين الثقافتين بشتى الوسائل كالاستعمار، الحدود، الهجرة.

وما ينبغي التنبيه إليه هو أن الاستعمار له دلالة ثقافية ورمزية أكثر مما لديه دلالة مادية عسكرية، ويمكن أن ندخل حالات العنف لدى الزنوج في أميركا مظهراً من مظاهر الصراع الداخلي، لكن لها امتدادات ثقافية وتاريخية

[١] - محمد الأزهر، مبادئ علم الإجرام، ط: ٤، دار النشر المغربية، البيضاء (٢٠٠٠)، ص: ٥٩. ٦٠.

وعرقية أيضا.لذلك يؤكد هنتغتون على أن المبادئ الفلسفية والقيم الإنسانية والعلاقات الاجتماعية والأعراف وطريقة النظر إلى الحياة بشكل عام تختلف واقعياً من حضارة لأخرى[1].

ليس العنف أحياناً مجرد مظهر من مظاهر الثقافة أو نتاجاً لها، بل يشكل ضرورة وواجباً ثقافيا، وذلك حسب ما يعرف بنظرية الثقافة الفرعية التي أوضح "بيتر تاونسند" بأنها تتكون من أنساق متميزة للقيم والعادات، بحيث تتكون منظومة ثقافية تختلف عن تلك السائدة في المجتمع ويتم انتقال قيمها ومعتقداتها من جيل لآخر، وكمثال على ذلك نجد قبائل "موریاس Morias" بالهند تتخذ من ممارسة العنف والقتل والسلب والنهب مهنة لها، ويتم توريث الأبناء العنف وتنشئتهم عليه باعتباره أسلوباً مقبولا .

II .التفسير الاجتماعي:

في الحقيقة غالبا ما يصعب الفصل التام بين ما هو نفسي وما اجتماعي إذ يشتغلان في تفاعل مستمر وعلى نفس المنوال يتداخل الثقافي مع الاجتماعي فتكون حدودهما نسبية، لكن مع ذلك نركز على البُعد الاجتماعي للعنف في صورة امبريقية وواقعية، وذلك من خلال فهمه كظاهرة متشابكة الخيوط داخل النسيج الاجتماعي لعلاقات متعددة ومختلفة ولمؤسسات اجتماعية وتربوية تنشئوية. من هذا المنطلق سنتناول التأصيل السوسيولوجي للعنف من خلال محاولات جادة في تفسير العنف كظاهرة اجتماعية لها أسبابها ومظاهرها وتجلياتها ومشاكلها، وعليه فجذور العنف مصدرها الإطار الاجتماعي الذي يضم الأسرة والمدرسة وباقي المؤسسات التربوية وغيرها، وتختزل هذه المؤسسات الاجتماعية معايير وقيم تكون هي المحرك لكل فرد نشأ وتربى فيها. يتعلق الأمر هنا بالتنشئة الاجتماعية، باعتبارها عملية إكساب الفرد أدواراً اجتماعية لكي يشغل مكانات موقعية في الجماعات التي يعيش في وسطها، واكتساب الفرد للأدوار يتحقق من ناحية اجتماعية عملية، في أسرته ،وجماعته الرفقية ، ومدرسته ،ومكان عمله ،وباقي الجماعات الاجتماعية التي ينخرط بها على مكانة اجتماعية[2].

وفي حالة وجود العنف في هذه الأوساط الاجتماعية فإنه من الطبيعي أن يلجأ الفرد لممارسة العنف، ويعتبر عدم لجوئه للعنف مجرد استثناء. بل أكثر من ذلك هو قد يصبح مرتكب سلوك العنف شخصية بطلة وقوية وقادرة على تجاوز الصعاب في ما يمكن تسميته سوسيولوجيا ب:"الرجولة" أو "السوبرمان"، كما هو الشأن بالنسبة لبعض الأوساط الاجتماعية في البوادي في المغرب مثلا، ويتحول الملتزم والخاضع للمعايير إلى خائف وخانع تنعدم فيه ما يسمى بـ"الرجولة" في الأوساط الشعبية أحيانا، ولعل هذه القراءة تذكرنا بما رأيناه سلفا في التفسير بالثقافة الفرعية، لكن الأمر هنا يتعلق بمعيار اجتماعي وليس ثقافي.

---

[1] E Samuel. P. Himtingtion, 2000, « Lechoc des civilisations », Odile Jacob, Paris, p : 24.

[2] -التنشئة الاجتماعية، د.معن خليل العمر، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط: ١، ٢٠٠٤، عمان، الأردن، ص: ٢٠.

أ. اللامعيارية (إيميل دوركايم):

سنجد إذن من المفاهيم التي تشكل المدخل الاجتماعي للعنف "اللامعيارية أو الأنوميا" والضبط الاجتماعي والضغوط الاجتماعية، ويُعد السوسيولوجي الفرنسي "دوركايم" من رواد هذا الاتجاه فقد فسر الظاهرة الاجتماعية بكونها ظاهرة طبيعية تتصل بتكوين المجتمع وطبيعة الحياة الاجتماعية، والعنف هنا نتاج اجتماعي ينتجه المجتمع نفسه من خلال إدانته وتحديده لبعض الأنماط السلوكية بوصفها أفعالاً مخلة بالمعايير والقواعد الاجتماعية[1]، وقد عهد" دوركايم " على محاولة تحديد الظاهرة الاجتماعية وتشخيصها، فاعتبرها تلقائية بمعنى أن الفرد ليس بصانعها لأنها موجودة قبل أن يوجد الأفراد، فنحن نولد ونجد أمامنا مجتمعاً كاملا معداً من قبل لا نستطيع أن نغيره إذا أردنا وما علينا إلا الخضوع لكن بالمقابل نجد هذا المجتمع قد وضع الجزاء لكل من ينحرف ولم يتبع النظام الاجتماعي[2].

وإذا كانت الظاهرة الاجتماعية خارجية بمعنى أن لها خواص سابقة عن الأفراد ومستقلة عنهم كما يحدد "دوركايم"، فإن المسألة هنا تجعلنا نشكك في مسؤولية الأفراد، لأنه مادام المجتمع تشكل خارج الأفراد ومادام الفرد مستقل عن ظواهر المجتمع، فالعنف كظاهرة من بين ظواهر أخرى مسؤولية اجتماعية بامتياز، لكن ما ينبغي التأكيد عليه هنا هو أنه حتى علماء الاجتماع اختلفوا في الإجابة عن سؤال من المسؤول عن من؟ أو من يصنع من؟ هل المجتمع هو صانع لأفراده أم الأفراد صانعوا مجتمعهم؟أم أن الإنسان أصلا لا يكون إنساناً إلا بالجماعة التي يحقق فيها إنسانية، وكذلك الجماعة ليست سوى الغاية الطبيعية للإنسان بصفته مواطناً له القدرة على المشاركة في تدبير الشأن العام؟

إن قراءة سوسيولوجية عفوية تنطلق من قبول الافتراض الأخير الذي يحدد علاقة الفرد بمجتمعه في عبارة "الفرد والمجتمع وجهان لعملة واحدة" وربما هو ما اهتدى السوسيولوجي الألماني "نوربرت الياس" تجعلنا نفسر أن العنف يرتبط بخلل في الجماعة التي يحقق فيها الإنسان إنسانيته أو خلل في طريق المشاركة التي قد تعطينا حالة الانصهار والاندماج في المجتمع أو حالة "اللاتكيف" واللاتوافق الاجتماعيين.

وقد أشار دوركاييم إلى أن حتمية الظروف الطبيعية على المجتمع تولد ما اصطلح بـ"الأنوميا"[3]، وهو مفهوم طوره "ميرتون Merton" فاعتبره حالة اجتماعية تتصف بالتناقض والصراع بين الأهداف التي يحددها المجتمع والطرائق التي يقررها في تحقيق هذه الأهداف كما يشير "الأنومي" إلى ضعف المعايير الاجتماعية الضابطة لسلوك الأفراد أو

---

[1] - واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي، مرجع سابق، ص: ١٤٠.

[2] - اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، د. عبد الباسط عبد المعطي، عالم المعرفة، غشت ١٩٨١، الكويت، العدد: ٤٤، ص: ١١٥.

غيابها أو عدم وضوحها١. وإذا كان الانحراف وفق رؤية ميرتون نتاجاً لغياب التوازن بين الأهداف ووسائل تحقيقها فإن العنف هنا سيجد تربة خصبة إذا رفض المجتمع الوسائل غير المشروعة.

خلاصـــة:

إن ما يمكن استخلاصه من وراء مسألة العنف هو أنها متشابكة الخيوط ،فالعنف ليس مفهوما وحسب ولكنه سلوك وممارسة صادرة عن الذات الإنسانية ، وبالرغم من اشتراك الإنسان مع الحيوان في هذا النمط السلوكي ، فإنه لا يمكن أن نغامر بالقول : إنه صفة إنسانية أو أنه سلوك فطري . وما دام نفي صفة الفطرية واعتباره نتاجا لما دون ذلك هو الأخر مجازفة في دراسة المسألة، فإنها تبقى أسيرة تفسيرات لمجموعة من الخطابات الأدبية و العلمية. إن مسألة العنف إشكالية فلسفية وهي أيضا ظاهرة ثقافية واجتماعية كما لها ارتباطات نفسية وفسيولوجية وهو ما يجعلها مجال الاختلاف في المبحث الأقرب لفهمها ودراستها .

وبالنظر إلى أشكاله المتعددة والمختلفة التي تنخر في الوجود البشري نفسيا، ومعنويا ،وجسديا ،فإن مجال مقاربته يجب أن ترتبط بمظاهره وتأثيراته ، فأثار العنف ونتائجه متعددة ومختلفة على الفرد والجماعة الإنسانية لاسيما في حالة الاعتداءات الجسدية والنفسية . ولعل هذه الحالة الإنسانية هي التي تجعل منه مسؤولية اجتماعية وأخلاقية يجب أن يتحملها الإنسان ، كل الإنسان ،لاسيما المفكر والعالم ومن أوكلت إليه مهمة التربية .

يظهر لنا بوضوح تام أنه لكي يعيش الناس في أمان وسلام على نحو أفضل ممكن يستوجب عليهم تخليق الحياة المدنية والاجتماعية وإعادة النظر في أنماط التفكير المشجعة على العنف أو المشجعة على محاربة العنف بالعنف، كما يستوجب محاصرة أسبابه ومعالجتها. وبناء على ذلك يجب أن ينزل المجتمع المدني والإعلام والجامعة والمدرسة وكل المنابر العلمية والأدبية بكامل ثقلهم ، وحتى جهاز الدولة بمختلف مؤسساتها السياسية للاضطلاع بمسؤوليتهم التاريخية والأخلاقية لمعالجة مسألة العنف وفهم خيوطها .

المراجع :

المراجع العربية :

- أحمد مصطفى جابر « ضد العنف والتمييز» دار كنعان للدراسات والنشر، دمشق، الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .

-أكرم عبد الرزاق المشهداني ،واقع الجريمة واتجاهاتها في الوطن العربي ، جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى الرياض

- إيمانويل كانط، نحو سلام دائم، ترجمة عبد الرحمين بدوي، وكالة المطبوعات الكويت ١٩٧٩ .

- المصطفى حدية: قضايا في علم النفس الاجتماعي، الطبعة ١ -٢٠٠٥ ربانيت، الرباط، .

ج.ل، فلووجل ، علم النفس في مائة عام، ، ترجمة: لطفي فطي، دار الطليعة، بيروت، ط: ٤، ١٩٨٨.

- حماني أقفلي ،العنف، مقاربات فلسفية، ، وليلي، العدد ١٤، ، مطبعة مرجان مكناس، أبريل ٢٠٠٩ .

- منير كرادشة، العنف الأسري، سيكولوجية الرجل العنيف والمرأة المعنفة، ، عالم الكتب الحديث إربد -الأردن ٢٠٠٩ .

- مصطفى حجازي: التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء الطبعة ٨ -٢٠٠١ .

-عبدالرحمان مصلح الشرادي "انحراف الأحداث في التشريع المغربي والقانون المقارن"، مطبعة الأمنية، ٢٠٠٢ ، الطبعة الأولى .

- عبد الباسط عبد المعطي، اتجاهات نظرية في علم الاجتماع، ، عالم المعرفة، الكويت، العدد: ٤٤، غشت ١٩٨١

- عبد الله عبد الغني غانم ،جرائم العنف وسبل المواجهة ، جامعة نايف للعلوم الأمنية، الطبعة الأولى، الرياض، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤ م .

- كاظم الشيب " العنف الأسري" قراءة في الظاهرة من أجل مجتمع سليم، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى ٢٠٠٧، المغرب .

- ج. جاك رسو: العقد الاجتماعي، ترجمة بولس غانم، اللجنة اللبنانية لترجمة الروائع، بيروت، ١٩٧٢ .

- ج.لوك، في الحكم المدني، ترجمة ماجد فخري، عن محمد سبيلا وعبد السلام بنعبد العالي، حقوق الإنسان، دار توبقال للنشر ط ٢ -٢٠٠٤.

- ماكس شيلر، الإنسان الحاقد، وراد عن غايات بيكون، آفاق الفكر المعاصر، الترجمة العربية، منشورات عويدات، بيروت .

- محمد ياسين: " ثقافة العنف: الأسس والفاعلية"، مجلة وليلي عدد ١٤، مطبعة مرجان ٢٠٠٩.

- ماكس فيبر " رجل العلم ورجل السياسة، ترجمة نادر ذكرى، بيروت، دار الحقيقة ١٩٨٢ .

- مكيافيللي: " كتاب الأمير"، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا، القاهرة ٢٠٠٤ .

- محمد الأزهر، مبادئ علم الإجرام، دار النشر المغربية، ط: ٤، البيضاء ٢٠٠٠ .
- معن خليل العمر ،التنشئة الاجتماعية، ، دار الشروق للنشر والتوزيع، ط: ١، ٢٠٠٤، عمان، الأردن .

-المراجع الأجنبية :

- E Samuel. P. Himtingtion, 2000, « Lechoc des civilisations », Odile Jacob, Paris, p : 24.
- freud, Essais de psychanalyse , ed Payoy, p 240
- F.Engles, L'origine de la famille, tard. J. stern, ed. Sociales, Paris, p 281-286.
- Petit Robert par Paul Robert, Dictionnaire de la langue Française.- rédaction dirigée par A.Rey et REY- Debove.107 avenue Parmentier, Paris- XI, p : 2097
- Thomas Hobbes, le Léviathan, traité da la matière et la forme et du pouvoir de la république ecclésiastique et civile, chap. XIV trad. Fr.traicand, Sirey 1971 pp120.
- JJ. Rousseau, le contrat Social, PUF, France، 2000 deuxième Livre, chap. VI

جامعة الناصر
AL-NASSER UNIVERSITY